بجاية الجزائرية

وريثة القيروان

وحاضرة المغرب العربي لثلاثة قرون

دكتور عبد الحليم عويس

الحديث عن «بجاية» كواحدة من حواضر حضارتنا الإسلامية يتطلب التعريف — ولو بإيجاز — بالدولة الحمادية التي تنتسب إليها بجاية في التاريخ.

والدولة الحمادية دولة جزائرية إسلامية ظهرت في التاريخ كحركة انشقاق، أو استقلال، عن بني زيري الذين ينتسبون إلى قبيلة صنهاجة الشمال ... والذين خلفوا الفاطميين في حكم المغرب العربي، بعد رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة (٣٦١ هـ).

وقد استقل بنو حماد بالجزائر، وامتدوا أحياناً إلى حكم بعض أقاليم من تونس التي كان عليها أبناء عمومتهم من بني باديس الزيريين.

وامتدَّ حكمهم من سنة (٤٠٥ — إلى — ٥٤٧ هـ) أي أن دولتهم قد استمرت قرابة قرن ونصف القرن.

وكان مؤسس دولتهم، وأول حكامها هو (حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي) — أما آخر حكامهم فهو (**يحيي بن العزيز**) الذي استسلم للموحدين وانضوى تحت لوائهم على أمانٍ أعطاه له عبد المؤمن بن علي الموحدي ! !

وكان من أعظم أمرائهم (**الناصر ابن علناس**) (**٤٥٤ — ٤٨١هـ**) وهو الذي أسس بجاية، بعد أن ضاقت العاصمة الأولى (قلعة بني حماد) عن الوفاء بما تتطلبه مرحلة الازدهار الحضاري التي تحققت على يد هذا الأمير الحمادي العظيم.

بجاية في التاريخ :

تمثل مرحلة بجاية في تاريخ الدولة الحمادية مرحلة التحضر والانفتاح والهدوء والاتساع، كما أنها تمثل الشوط الأخير الذي انتهى بسقوط الدولة، ذلك الشوط الذي امتد سبعة وثمانين عاماً.

ويرجع التفكير في بناء بجاية لدى الناصر — الأمير الحمادي الخامس — إلى عدة أسباب اختلف حولها المؤرخون، لكن الطابع العام لها هي أنها أسباب ترجع إلى ظروف طارئة وليست أسباباً خاضعة لتخطيط مسبق.

ويرى الرأي الأول — في تعليل بناء بجاية — أن النتائج التي أسفرت عنها موقعة سبيبة — غربي القيروان — التي هزم فيها **الناصر بن علناس — الحمادي** — سنة **٤٥٧هـ (١٠٦٤)م** أمام أبناء عمومته الزيريين أصحاب تونس، ونتيجة خيانة القبائل العربية له. كانت هي السبب في التفكير في بناء بجاية، ويذهب إلى هذا الرأي ابن الأثير(١) والنويري(٢)، وصاحب كتاب الاستبصار(٣). وبعض المتأخرين(٤).

ويضيف (ابن الأثير وياقوت) إلى هذا السبب رأيهم في أن بناء بجاية مرتبط بقصة الصلح بين الناصر الحمادي، وتميم بن المعزّ بعد موقعة (سبيبة)، وبقصّة خيانة ابن البعبع أحد رجال تميم — له، وتآمره مع الناصر. فإن الناصر كان قد ندم على تورطه في الحرب ضد بني عمومته، ومال إلى الصلح معهم، وشاور في ذلك وزيره أبا بكر بن أبي الفتوح الذي كان يميل إلى هذا الرأي قبل موقعة (سبيبة)، فقرر الوزير إرسال رسول إلى تميم يطلب الصلح وتحسين العلاقات، وقد قابل تميم بن المعزّ

العرض بموقف إيجابي. فأرسل أحد رجاله ويدعى محمد بن البعبع لتتم مع ابن عمه **(الناصر بن علناس)** شروط الصلح، لكن ابن البعبع خان تميماً، وانضم إلى الناصر ووعده بالمساعدة في امتلاك بلاد تميم، وأظهر له مواطن ضعفها، واقترح عليه بناء بجاية في موقعها الذي كان يمر به وأعجبه، لتكون على الساحل، ولتكون قريبة من **أفريقية**(٥) الزيرية. **ويرى رأي ثالث**، أن الناصر بن علناس، الذي تولى الأمر بعد قتله للأمير السابق له: بلقين بن حماد، فذكره مجاورة بني حماد الذين يميلون إلى بلقين في القلعة، إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة إثنا عشر ألف فارس(٦) وثمة آراء أخرى يرى بعضها أن بناء بجاية يرجع إلى مجرد الخوف من غزوات الهلاليين(٧)، ويرى بعضها أن بناء بجاية يرجع إلى الصدفة، إذْ أن الناصر كان يمرّ في طريقه إلى القلعة فأعجبته ضيْعة صغيرة لصنهاجة تدعى بجاية(٨).

وفي تصورنا أن الرأي الأول الذي يرجع الأمر إلى خراب القلعة كنتيجة لموقعة سبيبة، كان هو الباعث على التفكير في بناء عاصمة جديدة يمكن أن تلعب دوراً جديداً تتطلبه ظروف الدولة(٩)، بيد أن هذا الرأي يمكن أن يتصل بسائر التعليلات التي وردت بعد ذلك، ولا يوجد ثمة تنافر بينها، ففي فترة التفكير في موقع العاصمة الجديدة، يمكن أن تكون قصة ابن البعبع قد حدثت ونحن نرجح صحة حدوثها، ويمكن أن يكون الناصر قد شارك ابن البعبع الرأي، وتفقد المكان بنفسه، كما أنه لا شك أن من أهداف العاصمة الجديدة، حماية الدولة الحمادية من غارات الهلاليين، وإتاحة مكان أفضل لها بالنسبة لمنافسيها في تونس(١٠). ولا نجد أكثر وضوحاً وإيجازاً في إبراز سبب تعمير بجاية من عبارة الإدريسي «**وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنها عمُرت بخراب القلعة التي بناها حماد**»(١١).

موقع بجاية:

كان المكان الذي تقع فيه بجاية موقعاً لمدينة أسسها الفينيقيون تعرف باسم «صلدة» ثم انتقلت إلى الرومانيين وعرفت باسم SALDAEA — **(صلداي)** ثم خربت بعد ذلك ولم يعرف تاريخ اندثارها، ولكن الشيء الثابت أنها كانت من أهم مدن «نوميديا» وقد أقام بها الامبراطور «أوغست» جالية رومانية، وكانت بها

أسقفية إلى أوائل القرن الخامس الميلادي(١٢).

وفي العصر الإسلامي، لم يكن لها شأن، وربما كانت على شكل قرية صغيرة مغمورة على عهد الناصر الحمادي، وكانت تسكنها قبيلة تسمى بجاية أو (**بوجي**) يبدو أنها فرع صغير لإحدى القبائل الكبرى المنتشرة في المغرب، ويبدو أن بجاية كانت معروفة قبل تعميرها على يد الحماديين كمرسى(١٤). فإن حوقل المتقدم عن الحماديين يذكرها بهذه الصفة(١٥)، وقد فهم «جوتين» — خطأً — أن ابن خلدون يحكي قصة تأسيس بجاية كأن لم يكن لها ماض(١٦) على أن ابن خلدون ذكر أنها كانت قبل الناصر محلة مسكونة بقبيلة بربرية تحمل نفس الاسم(١٧).

خصائص مدينة بجاية :

ومن الواضح أن اختيار الناصر لبناء بجاية في هذا المكان لم يكن إلا نتيجة لما تتمتع به من موقع ومناخ استحوذا على إعجابه، فهي على شكل مثلث قاعدته الميناء أو البحر الذي تقع على ساحله، حيث تقوم كفاصل من الفواصل الكثيرة بين إفريقية (**تونس والمغرب**)(١٨) لكنها مع ذلك على حرف حجر متكيء من جهة الشمال على جبل يسمى مسيون صعب المرتقى(١٩). وليس لها طريق سهل إلا من ناحية الغرب، وباقي طرقها شرقاً وجنوباً على أوعار كما أنها تقع بين مدينتين هما الجزائر وقسنطينة، وتطل على خليج يحميها من ثورة البحر ولهذا كانت المدينة في القديم مجرد ميناء أو مرسى(٢٠).

وتتمتع المدينة بنهر كبير يسمى «**الوادي الكبير» هو منتزهها وعليه بساتينها وقصورها**(٢١) وهو يأتيها من جهة المغرب من نحو **جبال جرجرة** وهو نهر عظيم على بعد ميل منها وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلاً، ويجوزه من شاء في كل موضع منه. وأما عند فم البحر الأبيض فيجاز بالمراكب(٢٢) وعلى شاطيء هذا النهر تقام البساتين والمنتزهات(٢٣).

والمدينة قطب لكثير من البلاد كسطيف وباغاية وقلعة بشر وتيفاس وقالمه وتبسه ودور مدين والقصرين وطنبة(٢٤).

وتمتاز بجاية إلى جانب الموقع — بمناخ معتدل جداً في الصيف، ويكثر

سقوط المطر الغزير في منطقتها — لا سيما في الشتاء — كما أن البحر الأبيض المتوسط يلطف دائماً من جوها، ويعطيها كل مميزات خصائص المدن الساحلية.

سكان بجاية:

وعندما شرع الناصر في بنائها سنة ٤٦٠هـ — ١٠٦٧م اجتذب إليها عدداً كبيراً من السكان، إذ كان يعْفى جميع السكان الجدد من الضرائب، وكان يجبر الأهالي على بناء المساكن، كما كان يفرض على كل من يدخل هذه المدينة أن يجلب معه حجراً أو يدفع قطعة من الذهب(٢٥)

ولما تم بناؤها أطلق عليها الناصر اسمه فأصبح اسمها الرسمي «**الناصرية**» لكن لم يقدر لهذا الاسم أن يحظى باستعمال الناس، إذ غلب على المدينة اسمها القديم المنتسب إلى أشهر قبيلة سكنتها هي قبيلة بجاية.(٢٦)

وفي العام التالي **٤٦١هـ (١٠٦٨م)** انتقل الناصر إليها، وبدأ يقوم بعملية تحضير شاملة لها، فأنشأ بها داراً للصناعة والأساطيل والمراكب وإنشاء السفن والحرابي حتى صارت عين بلاد بني حماد(٢٧)، ونسقها تنسيقاً بديعاً، إذ استغل النهر القريب منها، وأحاطه بكثير من البساتين والجنات، وصنع عليه نواعير تسقى من النهر(٢٨). ومن أنف الجبل الخارج من البحر والمتصل بالمدينة ابتنى الناصر مجموعة من القصور كان أشهرها قصر اللؤلؤ الذي كان — من أعجب قصور الدنيا(٢٩). والذي نرجحه أن المنطقة كلها سميت باسمه لشهرته، ويبدو أنه جعل من هذه المنطقة التي ابتنى بها قصوره منطقة خاصة أرستقراطية شبيهة بتلك الأحياء الراقية المعروفة بالأندلس، وقد وصف صاحب الاستبصار قصورها بأنها قصور لم ير الراؤون أحسن منها، ولا أنزه موضعاً، وذكر أن بها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية، والمجالس المقرصة والمبنية حيطانها بالرخام الأبيض(٣٠)

كما ابتنى رصيفاً ممتداً في البحر، ومناظر معلقة لجر المياه، وأحاط المدينة كلها بسور به أبراج للمراقبة(٣١).

تطور الدور التاريخي لبجاية:

وفي عهد خليفة الناصر (**المنصور ابن الناصر**) استمرت عملية تحضير المدينة(٣٢) ونقل إليها كثيراً مما كان

بالقلعة(٣٣). وقد ساعد على إعطاء مدينة بجاية أهمية خاصة منذ إنشائها، أنها كانت، بتحضرها الذي ذكرناه، الملجأ الذي وفد إليه كثير من الهاربين من إفريقية بعد خراب القيروان وهزيمة المعزّ بن باديس أمام الهجمة الهلالية.

ولما كانت سنة ٥٣٨ اقتلع (**يحي الحمادي**) من القلعة كل ما كان بها من أدوات الزخرف، ونقلها إلى بجاية فزينها بها، ويعتبر عهد **يحي الحمادي (٥١٥ — ٥٤٧)** قمة ما وصلت إليه بجاية من تطور حضاري، وإن كان هذا التطور قد حمل في طياته جراثيم انهيار الدولة.

وفي العهد الأخير لبجاية في العصر الحمادي كان المرابطون الذين توغلوا إلى تلمسان من أرض الجزائر سنة ٤٧٤ هـ، واحتلوا الغرب المغربي كله، يعانون من عوامل السقوط، وكانوا قد فقدوا وجودهم الحقيقي كقوة تهيمن على المغرب والأندلس. وفي الفترة نفسها كان الزيريون — أبناء عمومة الحماديين — في تونس، قد فقدوا القيروان منذ سنة (٤٥٤)هـ — ١٠٦٢م وسادت بلادهم الفوضى بفعل الهجمات التي شنّتها القبائل العربية التي أرسلها الخليفة الفاطمي المستنصر انتقاماً من المعزّ بن باديس، وبفعل الاضطرابات والحروب الدائمة بينهم وبين الحماديين، وبينهم وبين النورمان.

وقد أعطت كل هذه الظروف فرصة عظمى للحماديين، ليحتلوا مركز الصدارة في المغرب العربي، ولقد احتله الحماديون فعلاً، نظراً لضعف القوى المحيطة بهم، أكثر منه لقوتهم الذاتية، فقد كان الحماديون أنفسهم يعانون من بعض هذه العوامل التي عانى منها الزيريون، إلى جانب أسلوب بعض حكامهم في الحكم.

ومع كل هذه الظروف — فقد كانت حدود الحماديين على عهد بجاية، هي أكبر حدود وصلت إليها الدولة، لا سيما من الناحية الشرقية، إذ قدر لها أن يصل نفوذها إلى القيروان وتونس، كما أنها — بقوتها النسبية — قد أوقفت المرابطين عند تلمسان، واضطروا إلى التراجع عن وهران وتنس بعد أن وقفوا على مشارف مدينة الجزائر، وتم عقد سلام أدبي بين المرابطين والحماديين، لا سيما بعد بداية اضمحلال المرابطين بعد سنة **٥٠٠هـ (١١٠٦م)**، وموت يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين الكبير.

وانتهى ذلك كله بظهور الموحدين

الذين قضوا على كل القوى التي تحكم المغرب، وتمكنوا من لم شعثه تحت قيادتهم على مشارف النصف الثاني من القرن السادس الهجري (**الثاني عشر الميلادي**).

حضارة بجاية:

كان للحياة الهادئة والمترفة التي حققها الحماديون لأنفسهم منذ (**الناصر ابن علناس**) أثرها في إبداع المجتمع الحمادي في كثير من الفنون.

وإذا كان الإبداع الفني نتيجة من نتائج ازدهار المجتمع ورخائه، وخلوّه من المشاكل الخارجية والداخلية المهددة لحياته، إذا كان هذا فإن السياسة الحمادية التي قامت — إلى حد كبير — على أساس البناء الداخلي، وتوطيد العلاقات السلمية بشتى السبل مع الجهات الخارجية، كانت أبرز عامل في الازدهار الفني الذي تمتعت به دولة بني حماد في أكثر من نصف عمرها.

وحيث كان المجتمع الحمادي مفتوحاً يتلقى كل الباحثين عن مرفأ آمن، فقد استطاعت الفنون الحمادية أن تأخذ وتعطي، وأن تتبادل التأثير والتأثر مع الأندلس ومع المشرق العربي، محتفظة لنفسها بخصائص مستقلة، وبحق التصدير في كثير من نواحي الإبداع الفني — وبخاصة فنّ الهندسة المعمارية والزخرفة — «إن شهرة بني حماد قد ذاعت حتى طارت إلى الأندلس، ولقد شاع إيواؤهم للمغلوبين على أمرهم والمطرودين(٣٤).

ولئن كان المنصور الحمادي — كما يقول الدكتور سعد شلبي — قد جعل بلاطه أندلسياً تشبه فيه صاحبه بملوك الأندلس، فعاش عيش المترف المولع بالنساء(٣٥)، فإن الأندلس كذلك قد اقتبست من إفريقية والمغرب أوضاعاً من الأدب، وأصنافاً من الفن وطرائق من الغناء العربي(٣٦) «**إلى جانب أن ثمة طرائق من التعبير الزخرفي قد ظهرت في القلعة قبل ظهورها في حوض البحر الأبيض المتوسط بزمن طويل**(٣٧).

ومن البديهي أن بجاية التي تمصرت بخراب القيراون، قد ورثت جزءاً كبيراً من حضارة تونس — بخاصة(٣٨) — وقد أملت عليها الظروف أن تقوم بالعبء الذي كان مطروحاً عليها وعلى القيراون .. فأصبحت العاصمة الحضارية للمغربين الأوسط والأدنى.

لقد سارت الموسيقى والغناء شوطاً بعيداً في ظلال الحماديين «**ولقد أصبح الملوك والأمراء الحماديون يعنون بالمغنين وأرباب الفن، فيستخدمونهم بقصورهم ويجلسون إليهم** (٣٩)» وأغلب الظن أن هذه الموسيقى متأثرة إلى حد كبير بالموسيقى الأندلسية، إذ كان الأندلسيون — هم سادة هذا الفن — في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، وربما كانت هناك تأثيرات شرقية كذلك. ولا نظن أن الحماديين قد جاءوا فيه بجديد» وقد حذت حذو الأغنية العربية أغنية محلية شعبية تغنى بها البدو والبربر في جبالهم عدا ما كان من الأناشيد الحماسية التي ابتكرها العرب الهلاليون(٤٠) «الذين أصبحوا عنصراً ثقافياً من عناصر الثقافة الحمادية».

وكان الخط والحفر والرسم والنقش والنحت والزخرفة من الفنون التي عنى بها الحماديون، وقد تطورت هذه الفنون الحمادية مع تطور الدولة وارتبطت كذلك بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والحضارية للمجتمع الحمادي، فثمة خلاف بين فن القلعة وفن بجاية، (**فنحن لا نستطيع أن نجد في بجاية فناً متجانساً كذلك الذي وجد في القلعة**) فالخزف والصيني الذي وجد في القلعة للأمراء الصنهاجيين، كان متجانساً بطريقة جلية، ومردّ ذلك التجانس إلى أن المدينة قد نشأت ونمت وفقدت كل أهميتها السياسية وتقريباً كل نموها وكل نشاطها العسكري تقريباً في أقل من قرن، ولم تنهض بعد ذلك أبداً، أما بجاية فعلى العكس من ذلك، كانت موجودة من قبل أن يستوطنها الأمراء الحماديون، وتواتر عليها من بعدهم حكام كثيرون وأجناس عديدة، وقد كانت بحكم موقعها كميناء يجري على اتصالات مستمرة بعالم البحر الأبيض، فليس غريباً إذن أن تكون قطع الخزف والصيني التي عثر عليها في بجاية تنتمي إلى أصول عديدة(٤١).

لقد خلف الحماديون نماذج متعددة متنوعة من فنونهم الصناعية، كالرخام والخشب المنحوت الرائع، والرسوم الزخرفية، والبرونز والزجاج والخزف والصيني، والمخطوطات الزخرفية.

وبالنظر إلى صورة الحجر الحمادي الذي كان معلقاً على واجهة أحد القبور في بجاية والموجود في متحف بجاية الحديث(٤٢)، نجد نمطاً من الخط الحمادي يدلنا على أن ذلك الخط كان قريباً من الخط الكوفي المشتبك المشهور

في العصر الحمادي كله(٤٣)، وثمة خطوط أخرى اكتشفت في حفريات (**بجاية**) سواء تلك التي اكتشفت على حجارات القبور أو على أقواس الأبواب(٤٤) وكلها خطوط كوفية، وبالمقارنة بين هذه الخطوط يتبين لنا أن ثمة تطوراً هائلاً بين كتابات القلعة ذات المظهر البسيط، وبين تلك الأخرى التي عثر عليها في بجاية(٤٥). مما يؤكد التطور الحضاري الذي بدأ بعهد بجاية والناصر في الدولة.

ومن الأجزاء التي وجدت أثناء الحفريات يتبين أن هناك فناً زخرفياً أنيقاً ومليئاً بالأصالة(٤٦) في السقوف المخصصة على هيئة مربعات، وفي البلاط ذي الأشكال المختلفة، وفي التحف المذهبة أو المفضضة أو الدنان والأكواز والصحاف والأواني والأوعية والمحابر والمصابيح وزجاجات العطور، وفي القصور على وجه الخصوص، في كل ذلك برز فن الزخرفة الحمادي(٤٧). كفن متقدم ذي ملامح إسلامية عربية وبربرية، يدل على تقدم كبير في هذا الفن، وفي غيره من الفنون المتعلقة به كالرسم والنحت والحفر والنقش(٤٨).

لقد عرف الحماديون فن هندسة تخطيط المدن، وكانت مساحة بجاية تقدر على هذا العهد بمائة وخمسين هكتارًا أي ١٥,٠٠٠ متر مربع، وتجزأ إلى ٢١ حياً مشتملة على ٧٣ مسجداً، وتضم من السكان ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ نسمة(٤٩).

وفضلاً عن الشروط التي كان البربر يوفرونها في الموقع الذي يختارونه لبناء مدنهم، من ضرورة توفر مياه الشرب، وكثرة العيون الجارية، وإشراف المدينة على منطقة واسعة لاكتشاف العدو من بعيد(٥٠)، ومراعاة أن يوفر المكان للعاصمة قدراً من الحماية الذاتية، ... فضلاً عن ذلك فقد كانوا يراعون في تخطيطاتهم للمدن أن تكون العيون داخل أسوار المدينة، ويستحسن أن تكون العيون في الجهات العلوية من المدينة حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقي وإدخال المياه إلى المنازل(٥١).

ومن الملاحظ في تخطيطات الحماديين للمدن اهتمامهم بتخصيص أماكن للأسواق، واهتمامهم بالبساتين المحيطة بالقصور، والحدائق العامة(٥٢) فضلاً عن الجداول والأنهار التي كانت تخترق المدينة(٥٣)، ويبدو أن أحياء ارستقراطية خاصة كانت تقام في

داخل المدينة تسكنها الطبقة الحاكمة وأتباعها، ويبدو كذلك أن أحياء خاصة كانت تقام للجاليات الأجنبية والمسيحية واليهودية، كما أن مدن وأماكن الحماديين لم تكن تخلو من الفنادق والمساجد الضخمة ودور العلم وأماكن للحفلات والمعارض. وغيرها من مستلزمات المدن المتقدمة.

لقد كان الفن المعماري أو الهندسة المعمارية أشهر ما عرف من نواحي التقدم الحمادي، فعبر كثير من القصور والمساجد التي أبدعت الحضارة الحمادية في تشييدها، أثبتت الحفريات التي قام بها «بلاتس وبيليه وفولفان» والحفريات الرسمية الجزائرية، مدى التقدم الذي أحرزه الحماديون في هذا الفن.

* * *

وقد ازدهرت حركة التقدم العمراني في بجاية، وعكس هذا التقدم صورة لون آخر من ألوان ازدهار الحضارة الحمادية في بجاية.

وقد كان للناصر بن علناس وابنه المنصور الأثر الكبير في تحقيق ازدهار بجاية العمراني.

ويعتبر قصر اللؤلؤة الذي أنشأه الناصر من أعجب قصور الدنيا(٥٤) «في عصره، وقد بني حوالي سنة ٤٧٠ هـ — ١٠٧٧ م(٥٥) ويبدو أن قصر اللؤلؤة هذا كان أكثر من قصر يضمها سور، على غرار «**دار البحر**» في القلعة، لأن صاحب الاستبصار يتحدث عنه على أنه «موضع به قصور، لم ير الراءون أحسن منها بناء، ولا أنزه موضعاً، فيها طاقات مشرفة على البحر، عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية، والمجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، وقد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب واللازورد، وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزهاً وجمالاً(٥٦).

كما بنى المنصور قصر بلّارة، نسبة إلى عروسه بلّارة بنت تميم بن المعز(٥٧) وقصر العروسين(٥٨).

والحق أن الأمير **المنصور** بن الناصر كان — كما يصفه **ابن خلدون** — جماعة مولعا بالبناء، وهو الذي حضّر ملك بني حماد، وتأنّق في اختطاط المباني والمصانع، واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين(٥٩)

«وبصرف النظر عن مآثره المعمارية في القلعة التي اهتم بها على الرغم من أنه نقل العاصمة السياسية — إلى بجاية — واستقر بها، فقد كانت له مآثر في بجاية من أبرزها قصره الذي وصفه **ابن حمديس الصقلي**، وتحدث عن ساحاته المرخمة وتربه المخضب بالدر، وأضوائه التي تحول ليله نهاراً، وأسوده التي يخرج الماء من أفواهها على جانبي الأحواض، وثمراته البديعة، وأشجاره الذهبية الساحرة، وصهاريجه وأبوابه المصحفة المزخرفة وسفنه ذي النضرة السماوية(٦٠). ويبدو أن هذا القصر كان ينسب إلى المنصور، وأنه سوى قصوره الأخرى المقامة ببجاية، وهي قصور الخلاص والنجمة والميمون(٦١).

وقد حاولت من تتبع أوصاف هذه القصور ومن تتبع الأوصاف التي ذكرها ابن حمديس أنْ أصل إلى أنه أحد هذه القصور، لكن لم توجد أية قرائن جازمة — من ناحية الأوصاف — ترجح أحدها، على الرغم من ورود بعض الأبيات في قصيدة ابن حمديس ترجح أنه قصر النجمة كقوله:

فلك من الأفلاك إلا أنه
حقر البدور فأطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر
ثم انثنيت بناظري محسورا

وعلى الرغم من وصف «**كتالوج بجاية**» له نقلاً عن «مخطوط البجاوي» بأنه قصر مشرق يشبه إشراق الشمس مرسلة حزمها الضوئية، وأنه كان ذا أبواب تسعة كل واحد منها بمصراعين من الخشب المحفور بإتقان(٦٢). وهي أوصاف وردت — على نحو ما — في قصيدة **ابن حمديس الصقلي** — لكنها أوصاف ليست جازمة في تحديد أنه قصر النجمة، ومن المحتمل وجودها في قصوره كلها.

وقد ابتنى المنصور في بجاية مسجداً زينته منارة ارتفاعها ستون قدماً وبواجهته سبع عشرة باكية.

ولا زالت أطلال كثيرة من هذه الآثار باقية في خرائب بجاية. وهي شاهد حيّ على ما كان لبجاية الحمادية من شأن في التاريخ الجزائري الإسلامي، ذلك التاريخ العظيم الذي انتصر على كل عوامل التغريب والفرْنسة ... وعاد — بعد معركة مجيدة — يستأنف رحلته الكريمة في طريق الحضارة الإسلامية العريق والخصب والممتد..

هوامش

(١) الكامل ٤٦/١٠.

(٢) نهاية الأرب ٦٧/٢٢ (المجلد الثاني).

(٣) الاستبصار ١٢٨، ١٦٨.

(٤) تاريخ الجزائر للميلي ٢٢٥/٢، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٧٠/١.

(٥) ابن الأثير في الكامل ٤٧/١٠، وياقوت في معجم البلدان ٦٢/٢، (مادة بجاية).

(٦) ابن الخطيب أعمال الأعلام ٦٤/٣.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ ورابح بونار المغرب العربي ص ٢١١.

(٨) المجتمع المغربي للدكتور ابراهيم العدوى ٢٧٣.

(٩) يذهب الدكتور ابراهيم العدوى إلى أن بناء بجاية كان بسبب خطة رآها الناصر لمواجهة النورمان (أنظر المجتمع المغربي ٢٨٠)، وبالنظر إلى أن بناءها كان سنة ٤٦٠ هـ بعد هزيمة الناصر في سبيبة وتهديد دولته بالضياع على يد العرب الذين عاشوا فيها، وبالنظر إلى أن الحماديين كانوا يواجهون بقوى متعددة داخل الإطار المغربي كالزيريين وزناتة والقبائل العربية بالإضافة إلى المرابطين، بالنظر إلى هذا نستبعد أن يكون الحماديون قد مدوا الطرف إلى هذا الأفق — السياسي البعيد — أيْ بناء بجاية لمواجهة النورمان — في هذه المرحلة على الأقل، وهذا لا يمنع أن تكون بجاية قد حققت أهدافاً في مواجهة النورمان.

(١٠) يذهب صاحب الاستبصار (ص ١٢٨) ويوافق عبد الهادي التازي محقق المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (ص ١٣٠ هامش) إلى أن المنصور هو الذي بنى بجاية وأنها سميت المنصورية، والمنصور لم يكن له إلا فضل الامتداد العمراني والانتقال — بدوره — إلى بجاية، بدلاً من القلعة، والغريب أن الاستاذ التازي ذكر أنه اعتمد في ذلك على ابن خلدون — (٣٥٧/٦) وبالرجوع إلى نفس الصفحة من نفس الطبعة — وُجد أن ابن خلدون ذكر أن بانيها هو الناصر، وأنها سميت الناصرية !!!

(١١) صفة المغرب ص ٩٠ للإدريسي.

(١٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥٠/٣ مادة بجاية، موجز التاريخ العام للجزائر الكعاك ٢٥٩، وكتاب الجزائر للمدني ١٨٤ وكتالوج بجاية ١٦، ١٩.

(١٣) أنظر

(١٤) أنظر:

(١٥) صورة الأرض لابن حوقل ص ٧٧.

(١٦)

(١٧) العبر ٣٥٧/٦.

(١٨) كتالوج بجاية وزارة الأخبار الجزائرية سنة ١٩٧٠ ص٨، ومعجم البلدان ٦٢/٢ (مادة بجاية).

(١٩) أنظر صفة المغرب ٩٠.

(٢٠) معجم البلدان ٦٢/٢، والقاموس الإسلامي المجلد الأول ٢٧٣ — أحمد عطية الله.

(٢١) تقويم البلدان ١٣٧، المعجب للمراكشي.

(٢٢) أنظر صفة المغرب ٩٠

(٢٣) كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي ١٤٢.

(٢٤) أنظر صفة المغرب للإدريسي ٩١.

(٢٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ (مادة بجاية) وكتالوج بجاية ١٤.

(٢٦) أنظر معجم البلدان ٦٢/٢، ودائرة المعارف ٣٥١/٣، كتاب الجزائر للمدني ١٨٤.

(٢٧) صفة المغرب ص ٩٠ والاستبصار ١٣٠.

(٢٨) الاستبصار ١٣٠.

(٢٩) الاستبصار ١٣٠، دائرة المعارف ٣٥١/٣ وتحفة الزائر ١٩.

(٣٠) الاستبصار ١٣٠.

(٣١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣.

(٣٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣.

(٣٣) كتاب الجزائر للمدني ١٨٤.

(٣٤) دكتور سعد شلبي (ابن حمديس الصقلي) ١٦٩.

(٣٥) المكان السابق.

(٣٦) الورقات: الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ٢٢٥/٢.

(٣٧) كتالوج بجاية ٥١.

(٣٨) أنظر الورقات للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ٢٦٦/٢.

(٣٩) موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ٢٩١ وانظر: الهلالي الميلي تاريخ الجزائر ٢١٢/٢.

(٤٠) موجز التاريخ للكعاك ٢٩١ وجدير بالذكر هنا أننا — من جهة تاريخية — نرصد الواقع. ولا يعنى هذا أننا نؤيد ما فيه من مظاهر اجتماعية ربما كانت مظاهر انحرافية.

(٤١)

(٤٢) كتالوج بجاية (٢١) (صورة الحجر) وانظر ص (٣١) صورة أخرى.

(٤٣) أنظر مجلة الأصالة عدد نوفمبر ١٩٧١ ص ٩٧ وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٩١/١.

(٤٤) أنظر كتالوج بجاية ٦٣.

(٤٥) المكان السابق نفسه.

(٤٦) أنظر كتالوج «المساجد في الجزائر» ص ٨ طبع مدريد ١٩٧٠ بإشراف الدكتور رشيد بوردية عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر.

(٤٧) أنظر كتالوج بجاية ٦٢ وانظر كتالوج المساجد في الجزائر ١٩٥٨م.

(٤٨) أنظر كتالوج بجاية صفحات ٢٢، ٣٥، ٤٧، ٥١، (نماذج من فن الزخرفة والتصوير والرسم والنحت) وانظر الصفحات المرفقة بكتاب يليه:

(٤٩) كتالوج بجاية ص ٨ وانظر: تاريخ الجزائر العام ٣٨٧/١.

(٥٠) مجلة الأصالة عدد ذي الحجة ١٣٩١ مقال الأستاذ عبد القادر الحليمي بجامعة الجزائر عن: أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر «٨٠».

(٥١) المكان السابق نفسه.

(٥٢) أنظر موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ص ٢٦٢.

(٥٣) لا زال هذا الطابع موجوداً في المدن الجزائرية. ارتفاعاً وتوفيراً للبساتين والجداول الصغرى.

(٥٤) العبر ٣٥٧/٦ وقد ذكر أن المنصور هو الذي بناه والصحيح أنه الناصر ويحتمل أن المنصور قد أضاف بعض التحسينات!

(٥٥) تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ٢١٣/٢.